مرة أخرى.. "السيستاني" ينقذ العراقيين قبل "فوات الأوان".. إنه الأكثر تأثيراً على حياتهم!

من منزلٍ متواضع في مدينة النجف الأشرف جنوب العراق، يضع "السيستاني" نقاطه على الحروف فيغير نصوص المشهد بحسب ما تقتضيه مصلحة الجميع.. إنها تلك النقاط الضائعة التي بحث عنها أصحاب القرار طويلاً في ظل مشهدٍ متأزم لتحديد المواقف أو لاتخاذ القرارات. وبحكمته المعهودة التي فسرها كثيرون بـ "الصمت" استطاع المرجع الأعلى للشيعة السيد علي الحسيني السيستاني أن يخلص العراق من كوارث حتمية. إنه وعبر خُطب "الجمعة" المكتوبة التي يلقياها ممثلوه؛ استطاع أن يعيد هيكلة دولة عانت الضعف والتشرذم على مدار 13 عاماً، أو لا أقل.. كان له دوراً كبيراً وواضحاً في حفظ هيبتها وتماسكها طيلة السنوات المنصرمة، ليبرز في السنوات الأخيرة، وتحديداً عند تعرض البلاد لخطر بربري يقوده داعش، فهل قاد السيستاني رجل الدين والسلام حرباً؟!! السيستاني.. قبل "فوات الأوان"!! الرئيس الأمريكي "نيكسون" ١٩١٣ – 1994 يفتتح مذكراته بمقولة للجنرال الأمريكي دوغلاس ماك آرثر إذ يقول: "يمكن تلخيص تاريخ الاخفاق في الحرب بكلمتي «فوات الأوان» فوات الأوان على استيعاب الغاية المميتة لعدو قوي، وفوات الأوان على التأكد من الخطر المميت، وفوات الأوان على الاستعداد..." وفي لحظة فوات الأوان والفرصة التي غفل عنها السياسيون والخبراء العسكريون وأصحاب القرار في العراق؛ استطاع "السيستاني" أن يدرك الحرب قبل فوات أونها.. إنها حرب الدفاع والخلاص من المجهول الذي هدد الملايين من العراقيين عرباً واكراد، سنة وشيعة.. هذه هي حرب السيستاني!. لقد أجاد المرجع السيستاني قراءة الواقع بجدارة، واستطاع أن يخلص العراق مجدداً من "إخفاق" انتجته النخبة السياسية الحاكمة بعد أن أصدر فتواه الشهيرة بـ "الجهاد الكفائي" في توقيت أظهر فيه مدى حكمته وحنكته، عندها أدرك الجميع أن الرجل يملك تأثيراً روحانياً "مذهلاً" أعاد بوصلة العراقيين إلى طريق النجاة بعد مسيرٍ عشوائيٍ على غير هدى، ويتجلى ذلك واضحاً في متابعة العالم لخطب الجمعة التي يتلوها ممثليه في كربلاء الشيخ عبد المهدي الكربلائي والسيد أحمد الصافي من الحرم الحسيني. كلمات المرجعية بعيدة عن الدعاية والشعارات الرخيصة ويظهر استطلاع اجراه مؤخراً قسم إعلام العتبة الحسينية المقدسة أن 88.35% من هؤلاء المستطلعين يرون أن "خطب الجمعة تحتل أهمية كبرى في توجيه المجتمع نحو العمل الجاد والالتزام بالثوابت الدينية والوطنية". ويؤكد هؤلاء أن خطاب المرجعية يتسم بالمصداقية فضلاً عن ابتعاده عن "الدعاية والشعارات الرخيصة" أو اعتماد أساليب التعتيم والتضليل التي عهدتها الجماهير في كثير

من الخطابات الأخرى. فيما أوضح عدد كبير من المواطنين أن "خطبة الجمعة أثرت إلى حد كبير في حياتهم واهتماماتهم الشخصية وعلاقاتهم الأسرية". وأرجع مراقبون ومحللون هذا التأثير إلى أسباب عديدة منها خلو المشهد السياسي والاجتماعي من النخب المنتجة للقرار السياسي، الأمر الذي فسح المجال لبروز خطاب المرجعية الدينية التي رأت من الضروري جداً ملئ هذا الفراغ، فيما يرى آخرون أن السطوة "الروحية" للمرجعية الدينية هي التي أفرزت هذا التأثير. السيد السيستاني .. روحانية عالية! ويقول الكاتب والمفكر "غالب حسن الشابندر" في تصريح خصنا به إن "السيد السيستاني له كل هذا التأثير الايجابي لأنه روحاني بالدرجة الاولى". ورأى أن تأثير السيستاني جاء "ليس لأنه مرجع ديني، وليس لأنه عالم، ولا لأنه فقيه ، أو لأنه سيد بن رسول ا، بل لسبب بسيط وعميق في الوقت ذاته وهو الروحانية العالية". ولفت الشابندر إلى أن "السيد السيستاني يستند في مواقفه إلى رؤيته الفقهية وليست السياسية". وأكد أن الذين يشكلون أحيانا على آراء السيد السيستاني "لم يدركوا المغزى ولا المباني الاولية لموقفه ... فقه السيستاني ليس مزحة ولا طارئ بل مؤسس" على حد قوله. السيد السيستاني المظلة الوحيدة للعبور نحو حياة "مدنية" من جهته اعتبر الكتاب والصحفي العراقي المقيم في دولة الكويت "حسن الفرطوسي" أن سر تأثير خطاب السيد السيستاني في المجتمع العراقي يرجع إلى اعتداله الديني وإيمانه بضرورة إيجاد حكماً مدنياً في البلاد وهو ما يبحث عنه الشعب العراقي حالياً. وقال "السيستاني هو الأقرب إلى النهج المدني، حيث يدعو إلى إقامة مؤسسات الدولة المدنية، ويشجع على انتخاب الأصلح بصرف النظر عن مذهبه وحزبه، ويطالب بمكافحة الفساد والمفسدين". وأضاف "السيد السيستاني كمدرسة فقهية أصيلة، لا يؤمن بإقامة حكومة دينية على غرار "ولاية الفقيه".. ولهذا فهو المظلة الوحيدة للعبور نحو حياة مدنية". ورأى الفرطوسي أن الشعب العراقي بعد حكومات عسكرية عقبتها حكومات الأحزاب الدينية فقد قدرته على اتخاذ القرار إذ امسكت تلك الحكومات بكل قراراته. ولفت إلى ما وصفه بـ "تهيب العراقيين" من فكرة الولوج إلى الحياة المدنية، لأنها تنطوي على مسؤولية اتخاذ موقف والاعتماد على الذات في بلورة نمط حياتي عام والسعي لتبنّيه، وهذا صعب جداً بطبيعة الحال. وقال "لم يجد العراقيون أمامهم سوى السيد السيستاني الأقرب إلى النهج المدني". لقد أثبت السيد السيستاني طيلة فترة تصديه لمعالجة الواقع الديني والسياسي والاجتماعي في العراق أنه حقاً كما وصفوه بـ "صمام الأمان"، ولم تترك مواقفه أدنى مجالاً للشك في ذلك، لأنه استطاع أن يمزج ألوان العراقيين المتعددة ويعيد لهم وحدتهم وتماسكهم في ضل تحديات التمزيق والتقسيم، سواء كان ذلك عبر فتوى الجهاد الكفائي، او دعوته لحقن الدماء وضبط النفس مع ازدياد وتيرة العنف الطائفي بعد عام 2003، وهذا بحد ذاته كفيلٌ بأن يجعل منه الرجل الأكثر تأثيراً على العراقيين، أنه حقاً

أمة في رجل!.